معوقاتٌ في مُواجَهةِ النَّظَرِيَّةِ الإسلامية

د/ علي يوسف اليعقوبي

الحلقة الثالثة

الأسلوبُ الأَمثلُ فِي نَقدِ الفِكرِ الغَربِيِّ

لَقَد تَناوَلَ الكَثِيرُ مِنَ النُّقَّادِ الفِكرَ الغَربِيَّ بِالدِّرَاسَةِ، وَالنَّقدِ، وَمِنهُم عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ؛ مُحَمَّدُ حُسَيْنُ فَضلُ اللهِ، حَيثُ عَالَجَ هَذِهِ المَسأَلَةَ في كِتابِهِ (**خُطُواتٌ عَلَى طَرِيقِ الإِسلامِ**)، مُبَيِّنًا الأَسَالِيبَ الخَاطِئَةَ الَّتِي يُوجِهُهَا التَّيَّارُ الإِسلامِيُّ لِلحَضارَةِ الحَدِيثَةِ، مُمَثَّلَةً في الحَضَارَةِ الغَربِيَّةِ، وَعُيُوبِهَا، وَمُشكِلاتِهَا، وَمَا تَمَخَّضَ عَن ذَلِكَ كُلِّهِ مِن نَتَائِجَ سَيِّئَةٍ انعَكَسَت عَلَى حَيَاةِ النَّاسِ بِسَبَبِ مَا تَرتَكِزُ عَلَيهِ مِن مَبَادِئَ، وَأُسُسٍ غَيرِ سَلِيمَةٍ، تَتَنَاقَضُ مَعَ الفِطرَةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيهَا، كَالغُلُوِّ في الفَردِيَّةِ، وَمَا يَتَمَخَّضُ عَنهُ مِن مَفَاسِدَ أَخلاقِيَّةٍ، وَانحِلالٍ في الأَخلاقِ العَامَّةِ وَصَلَت حَدَّ الانهِيارِ التَّامِّ في مَنظُومَةِ القِيَمِ الاجتِمَاعِيَّةِ بِشَكلٍ عَامٍّ [1]، وَمِنَ المُلاحَظِ أَنَّ فَضلَ اللهِ قَد جَعَلَ جُزءًا مِن نَقدِهِ، وَتَركِيزِهِ، عَلَى النَّتَائِجِ المُتَرَتِّبَةِ، وَمَعَ أَنَّ هَذَا الأَمرَ حَادِثٌ بِالفِعلِ، إِلا أَنَّ "طَرِيقَةَ النَّقدِ لِلفِكرِ الغَربِيِّ يَنبَغِي أَلا تَكُونَ مُوَجَّهَةً لِلنَتَائِجِ، وَالجُزئِيَّاتِ، وَإِنَّمَا يَنبَغِي أَن تُوَجَّهَ أَصلاً إِلَى المَنَاهِجِ، وَالأُصُولِ الفَلسَفِيَّةِ الَّتِي أَدَّت إِلَى تِلكَ النَّتَائِجِ، وَمِن ثَمَّ يُصبِحُ أُسلُوبُ الإِحصَائِيَّاتِ في عَدَدِ جَرَائِمِ الجِنسِ، وَحَوَادِثِ الإِدمَانِ، وَطَبِيعَةِ العَلاقَاتِ الجِنسِيَّةِ" [2]، لا يُفِيدُ، وَلا يُجدِي نَفعًا، لأَنَّ مِثلَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ في مُعَالَجَةِ قَضَايَا حَسَّاسَةٍ قَد يَكُونُ إِيجَابِيًّا في مُجتَمَعَاتٍ "لازَالَت مُؤمِنَةً بِالقِيَمِ، وَالمُثُلِ الخُلُقِيَّةِ، الَّتِي تَبدُو – **عَلَى أَسَاسِهَا** – مِثلُ هَذِهِ النَّتَائِجِ أَمرًا فَظِيعًا، يَبعَثُ عَلَى القَرَفِ، وَالاشمِئزَازِ، وَيَدفَعُ إِلَى الاستِنكَارِ، كَكَثِيرٍ مِنَ المُجتَمَعَاتِ الإِسلامِيَّةِ، الَّتِي لَم تَستَطِعِ المَفَاهِيمُ الحَدِيثَةُ لِلحَيَاةِ، وَالأَخلاقِ، أَن تَتَغَلَّبَ عَلَى مَفَاهِيمِهَا الرُّوحِيَّةِ" [3]، وَلِهَذَا فَإِنَّ النَّقدَ المُوَجَّهَ لِلفِكرِ الغَربِيِّ لَن يَكُونَ فَاعِلاً، أَو مُجدِيًا إِذَا ظَلَّ يُرَاوِحُ في دَائِرَةِ التَّركِيزِ عَلَى مُخرَجَاتِ الحَضَارَةِ الغَربِيَّةِ، وَمَا أَفرَزَتهُ مِن نَتَائِجَ ضَارَّةٍ، دُونَ الغَوصِ في زَعزَعَةِ الفِكرِ الغَربِيِّ نَفسِهِ، وَهَزِّهِ مِن أَسَاسَاتِهِ، وَمِن جُذُورِهِ الَّتِي يَرتَكِزُ عَلَيهَا، وَبِالتَّالِي إِحدَاثُ نَوعٍ مِن هِزَّةِ الضَّمِيرِ لَدَى الفَردِ الغَربِيِّ، وَبَذرُ بُذُورِ الشَّكِّ دَاخِلَ نَفسِهِ، وَمِن ذَلِكَ؛ أَنَّ تِلكَ الفَلسَفَاتِ تُحَاوِلُ القَفزَ عَلَى الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ، كَأَن تُحَاوِلَ مِثلُ هَذِهِ الفَلسَفَاتِ "أَن تُفَلسِفَ الانحِرَافَ عَلَى أَنَّهُ ثَورَةٌ، وَتُفَسِّرَ التَّمَرُّدَ عَلَى القِيَمِ، وَالمَفَاهِيمِ الرُّوحِيَّةِ، بِأَنَّهُ حَرَكَةٌ في حَيَاةِ المُجتَمَعِ، وَتَعتَبِرُ الإِنسَانَ وَحدَهُ مَصدَرَ القِيَمِ.." [4]، فَمِثلُ هَذِهِ الأَفكَارِ، وَالفَلسَفَاتِ، هِيَ الَّتِي يَجِبُ أَن يُوَجَّهَ إِلَيهَا النَّقدُ، لِيَتَبَيَّنَ مَدَى الخَطَأِ المَنهَجِيِّ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيهِ، وَمِن ثَمَّ خُطُورَةُ مَا يَنجُمُ عَنهُ مِن نَتَائِجَ، وَمُخرَجَاتٍ، كَمَا أَنَّ مُنَاقَشَةَ مِثلِ هَذِهِ القَضَايَا الفِكرِيَّةِ المُعَقَّدَةِ، وَالَّتِي صَارَت مُركَّبًا مِن مُرَكَّبَاتِ المُجتَمَعِ الغَربِيِّ

---

(١) ينظر/ محمد حسين فضل الله – خطوات على طريق الإسلام – ط١ ص٣٤٧.

(٢) د. أحمد رحماني – النقد الإسلامي بين النظرية والتطبيق – ط١، ج٢، ص٥٩٤.

(٣) محمد حسين فضل الله – خطوات على طريق الإسلام – ص٣٤٨.

(٤) السابق نفسه: ص٣٤٩.

نَفسِهِ، "يَحتَاجُ إِلَى أُسلوبٍ يَرتَفِعُ إِلَى مُنَاقَشَةِ المَفَاهِيمِ، وَمُحَاكَمَتِهَا فِي نِطَاقِهَا الفِكرِيِّ، وَالفلسَفِيِّ، وَالاجتِمَاعِيِّ بِشَكلٍ عَامٍّ، ثُمَّ فِي مُلاحَظَةِ الوَاقِعِ فِي ضَوءِ هَذِهِ المَفَاهِيمِ، لِئَلا تَبتَعِدَ النَّظَرِيَّةُ عَنِ التَّطبِيقِ، وَالمَفهُومُ عَنِ المِصدَاقِيَّةِ" (٥)، وَلِهَذَا لابُدَّ مِن تَعمِيقِ النَّظرَةِ فِي أَسبَابِ انحِرَافِ جُذُورِ الفَلسَفَةِ نَفسِهَا، لأَنَّنَا قَد نَردُّهُ إِلَى أَسبَابٍ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ نُفَاجَأُ بِأَنَّا نَحنُ فِي مُجتَمَعَاتِنَا قَد وَقَعنَا فِي الأَسبَابِ نَفسِهَا، كَأَن "نَرُدَّهَا إِلَى فَرَاغِ الإِنسَانِ الغَربِيِّ مِنَ الرُّوحِ، ثُمَّ نُفَاجَأُ حِينَ نَجِدُ الظَّاهِرَةَ تَتَفَشَّى بِالصِّفَاتِ نَفسِهَا فِي مُجتَمَعٍ رُوحَانِيٍّ" (٦)، لِذَا "فَمِنَ الخَيرِ لَنَا أَن نُنَاقِشَ أَيَّ انحِرَافٍ.. يَختَلِفُ مَعَ مَفَاهِيمِنَا الإِسلامِيَّةِ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ النَّفَاذِ إِلَى أَعمَاقِهِ، وَالوُصُولِ إِلَى مَنَابِعِهِ الأَصِيلَةِ فِي ذِهنِ الإِنسَانِ، وَفِكرِهِ، وَحَيَاتِهِ، لِنَستَطِيعَ الاحتِفَاظَ بِالمُستَوَى اللائِقِ لِلعَمَلِ، وَالتَّطَوُّرِ الطَّبِيعِيِّ لِلمُشكِلَةِ، لِئَلا يَكُونَ العَمَلُ شَيئًا جَامِدًا، بَارِدًا، لا يُثِيرُ حَرَارَةً، وَلا يَدفَعُ إِلَى حَيَاةٍ، بَل يَبقَى مُجَرَّدَ أَصدَاءٍ تَتَلاشَى فِي فَرَاغٍ" (٧)، وَحَتَّى لا يَكُونَ نَقدُنَا رُدُودَ أَفعَالٍ، أَو انفِعَالاتٍ آنِيَّةً، "يَنبَغِي أَن تَكُونَ نَظرَتُنَا حِينَ نَنتَقِدُ الفِكرَ الغَربِيَّ، وَمَنَاهِجَهُ، مُتَجَاوِزَةً لِلمُحِيطِ الَّذِي نَعِيشُهُ، لِكَي نَمنَحَ مَنهَجَنَا الأَصَالَةَ، وَالاستِمرَارَ، وَالشُّمُولَ، وَالسَّلامَةَ، وَالدِّقَّةَ.." (٨).

وَحَتَّى يَكُونَ النَّقدُ المُوَجَّهُ لِلمَذَاهِبِ الغَربِيَّةِ عَمِيقًا، وَفَعَّالاً، فَلابُدَّ مِن تَعرِيَةِ الجُذُورِ، وَالأَسَاسَاتِ الفَلسَفِيَّةِ الَّتِي قَامَت عَلَيهَا، حَيثُ كَانَت فِكرَةُ الدِّينِ وَالأُلُوهِيَّةِ عِندَهُم قَائِمَةً عَلَى تَعَدُّدِ الآلِهَةِ، وَمِن ثَمَّ كَانَت مُحَرَّفَةً، وَمُشَوَّهَةً، مِمَّا جَعَلَ الأَدِيبَ اليُونَانِيَّ؛ وَهُوَ الثَّمَرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِتِلكَ الفَلسَفَةِ، يُجَسِّدُ تِلكَ الوَثَنِيَّةَ بِمَا فِيهَا مِن تَنَاقُضَاتٍ، وَاضطِرَابٍ، وَحَيرَةٍ، وَتَرَدُّدٍ، وَقَلَّمَا طَرَقَ مَعَانِي الخَيرِ، وَإِن طَرَقَهَا أَحيَانًا، فَيَظَلُّ طَرقًا جُزئِيًّا (٩)، وَلَم يَكُنِ الأَدَبُ الرُّومَانِيُّ بِأَحسَنَ حَالاً مِنَ الأَدَبِ اليُونَانِيِّ، حَيثُ كَانَ – **كَذَلِكَ** – تَعبِيرًا عَنِ الحَالَةِ الوَثَنِيَّةِ، وَالفَسَادِ الأَخلاقِيِّ، وَالاستِخفَافِ بِالدِّينِ (١٠)، وَقَد أَثَّرَتِ الوَثَنِيَّةُ بِقُوَّةٍ عَلَى حَيَاةِ أُورُوبَّا المَسِيحِيَّةِ، وَلَم تَعُدِ المَسِيحِيَّةُ قَادِرَةً عَلَى مُعَالَجَةِ القَضَايَا الآنِيَّةِ لِلإِنسَانِ، وَلا قَضَايَا الشُّعُوبِ المُتَجَدِّدَةِ (١١)، وَدَارَت صِرَاعَاتٌ عَنِيفَةٌ بَينَ السُّلطَةِ الدِّينِيَّةِ، وَبَينَ الأَبَاطِرَةِ، وَصَلَت حَدَّ التَّمَرُّدِ وَمُحَاوَلَةِ عَزلِ البَابَا، أَو نَفيِهِ، أَو سَجنِهِ (١٢)، كَمَا دَارَ صِرَاعٌ آخَرُ بَينَ الكَنِيسَةِ، وَالعِلمِ وَصَلَ حَدَّ الحَرقِ، وَالتَّعذِيبِ (١٣)، وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ، وَالتَّنَاقُضَاتِ..، ظَهَرَ عَجزُ الكَنِيسَةِ عَن تَقدِيمِ الفِكرِ الَّذِي يَبنِي الإِنسَانَ، وَالمُجتَمَعَ، وَالأُمَّةَ، وَاستَمَرَّ هَذَا الصِّرَاعُ قُرُونًا، لَم يَستَطِعِ المُجتَمَعُ الأُورُوبِيُّ خِلالَهَا أَن يُقَدِّمَ فِكرًا، أَو أَدَبًا،

---

(٥) محمد حسين فضل الله – خطوات على طريق الإسلام – ص٣٥٠.

(٦) د/أحمد رحماني – النقد الإسلامي بين النظرية والتطبيق – ج٢، ص٥٩٥.

(٧) محمد حسين فضل الله – خطوات على طريق الإسلام – ط١، ص٣٥١.

(٨) د/أحمد رحماني – النقد الإسلامي بين النظرية والتطبيق – ج٢، ص٥٩٥.

(٩) ينظر/ د. عدنان علي رضا النحوي – الأدب الإسلامي.. إنسانيته وعالميته – ص٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٠) ينظر/ السابق نفسه: ص ٢٥٥.

(١١) أبو الحسن الندوي – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – ط٨، ص ١٧٨ – ١٨٢.

(١٢) ينظر/ محمد قطب – مذاهب فكرية معاصرة – ط٨، ص٤٣، ٤٤.

(١٣) ينظر/ محمد قطب – مذاهب فكرية معاصرة – ص٤٨، ٥٠.

أو علمًا في ظلِّ الكنيسةِ، وقد كانت كلُّ تلك التَّراكُماتِ التي ورثَها ماثِلةً أمامَ النُّقَّادِ الأوروبِّيين، يعكِفُون عليها، ويتَّخذونها مثلاً، يستخرجُونَ منه القواعدَ الأدبيَّة، والأُسُس الفِكريَّة، التي مثلت مرجعيةً مُهمَّةً لِلمذاهِبِ الأدبيَّةِ الجديدةِ في أوروبَّا (١٤).

هذا عن طبيعةِ الفِكرِ الغربيِّ، وجُذورِه المغمورةِ في أوحالِ الوثنيَّةِ اليُونانيَّةِ، والرُّومانيَّةِ، وما جرَّته من ويلاتٍ على أوروبَّا ذاتِها، وعلى كلِّ من تلوَّث بها في مِضمارِ الفكرِ، والأخلاقِ، وهكذا كانت سطوةُ الفِكرِ اليُونانيِّ، والرُّومانيِّ، الذي حدَّد وُجهةَ الفِكرِ والأدبِ في أوروبَّا، حيثُ فشِلتِ المسيحيَّةُ الأوروبيَّةُ في تقديمِ البدائِلِ عن تلك الوثنيَّةِ البائسةِ.

وبين يدي هذِهِ الدِّراسةِ؛ ومن أجلِ تحقيقِ أهدافِها، وتطبيقِها على ما نحنُ بصددِهِ من دراسةٍ لِبعضِ المُعوِّقاتِ، وخُصوصًا المُعوِّقاتِ الخارجيَّة المُتمثِّلة في المذاهِبِ الغربيَّةِ؛ فلابُدَّ من تحديدِ المحاورِ العامَّةِ الرَّئيسةِ، التي ستكُونُ عِمادَ دِراستِنا، بعيدًا عن التَّفاصيلِ، والجزئيَّاتِ، وعمَّا هُوَ معلومٌ بالضَّرُورةِ عن كلِّ مذهبٍ من المذاهِبِ الأدبيَّةِ التي سنتعرَّضُ لها، والتي يستطيعُ أيُّ باحثٍ الحصُول عليها في مظانِّها، ومن المُهمِّ القولُ بأنَّنا لا نبحثُ في الأدبِ من حيثُ هُوَ أدبٌ فقط، وإنَّما ننظُرُ إليهِ من خلالِ المنظارِ العامِّ للمُوضُوعِ، أي من جهةِ علاقتِهِ بالدِّين، والإنسانِ، والحياةِ، ومُراعاةُ ذلك تستدعي منَّا عرضَ الموضُوعِ، وصياغتَه ضمنَ منهجٍ خاصٍّ يتميَّزُ بأُمورٍ:

١ – التَّركيزُ على ما لهُ صِلةٌ قويَّةٌ بموضُوعِ بحثِنا، وعرضُهُ بما يتناسبُ مع مُقتضى الحالِ.

٢ – البُعدُ – **ما أمكننا ذلك** – عن الخِلافاتِ حولَ المذاهِبِ الأدبيَّةِ، وتصنيفِ المدارسِ، والانتِماءاتِ، والشَّخصيَّاتِ، والتَّأسيسِ، والنَّشأةِ..وغيرِ ذلك.

٣ – البُعدُ عنِ الغُمُوضِ الذي يكتنِفُ الدِّراساتِ العصريَّةِ، والذي سيظهرُ طرفٌ منهُ – **بطبيعةِ الحالِ** – عندَ الحديثِ عن مدارسِ الضَّياعِ.

هذا وسنُراعي التَّسلسُلَ التَّاريخيَّ، في عرضِ المعالِمِ الكُبرى لِكُلِّ مذهبٍ من المذاهِبِ الأدبيَّةِ، ولِعمليَّةِ التَّحوُّلِ التي بلغت ذِروتَها في الأدبِ، والفنِّ المُعاصِرين.

---

(١٤) ينظر/ د. عدنان علي رضا النحوي – الأدب الإسلامي.. إنسانيته وعالميته – ص ٢٥٧، ٢٥٨.